الملخّص:

كان أبو العيد دودو (1934-2004) أوّل أستاذ جزائري في الأدب المقارن باللّغة العربية، كرّس حياته المهنية منذ التحاقه بجامعة الجزائر سنة 1969 م، إلى أن وافته المنية سنة 2004م، لتدريس الأدب المقارن ونظرية الأدب والآداب الأجنبية، والإشراف على طلبة الدّراسات العليا. وفضلا عن ذلك، ترجم من الألمانية إلى العربية العديد من المؤلّفات النّقدية والأدبية الإبداعية لفتح الآفاق أمام الطّلبة والدّارسين. وبذلك توزّعت جهوده بين التّدريس والتّرجمة والتّأليف.

واتّسمت كلّ جهوده المعرفية بتوجّه منهجي تاريخيّ نتيجة دراساته الجامعية في دار المعلّمين ببغداد والعليا في قسم الدّراسات الشّرقية بجامعة فيينا.

الكلمات المفتاحية: أبو العيد دودو – أدب مقارن– ترجمة – المنهج التاريخي – الاستشراق

Résumé :

Abou laid Doudou est le premier enseignant universitaire, Algérien, arabophone, de littérature comparée, il a consacré sa carrière depuis 1969 à l'enseignement de la littérature comparée, la théorie de la littérature, la littérature étrangère, et l'encadrement de post- graduant ; il a traduit de l'allemand à l'arabe plusieurs œuvres pour enrichir la bibliothèque universitaire.

Durand toute sa carrière, sa démarche méthodologique était historique.

***Mots clés :** Abou laid doudou- littérature comparée - traduction - méthode historique - orientalisme.*

نشرت سنة 2005م في العدد الحادي عشر من مجلة **"اللغة العربية"** الصادرة عن المجلس الأعلى للغة العربية مقالاً بعنوان: «أبو العيد دودو، والأدب المقارن في الجزائر»[1]، بينت فيه أن الأدب المقارن لم يترسخ في جامعة الجزائر، رغم قدمها تاريخيا[2]، إلاّ عندما التحق بها "أبو العيد دودو" في السنة الدراسية 1969/1968، فكان أول أستاذ جامعي جزائري تولى مهمة تدريس الأدب المقارن ونظرية الأدب والآداب الأجنبية باللغة العربية: «والحقيقة التي لا مراء فيها أنه أول أستاذ جامعي للأدب المقارن يعتمد العربية أساساً. درّسه وأشرف فيه على عدّة رسائل حرّرت باللّغة الوطنية على مستويي الماجستير ودكتوراه الدولة. نعم! أُسِّس بجامعة الجزائر منصب (1963) وجمعية ومجلة (1964) للأدب المقارن، إلا أنه لم يكن من بين المؤسّسين لذلك أستاذ جامعي واحد، ولا كان فيهم من يحسن العربية. إنما كانوا بحكم دراستهم وشهاداتهم إلى الفرنسية أقرب منهم إلى العربية»[3].

وعليه، أكرّر أن "دودو" هو رائد الأدب المقارن، بالمفهوم العلمي الأكاديمي، في جامعة الجزائر وبالتالي في الجامعة الجزائرية إذ بعدما انفرط عقد الفريق الشاب –جزائريين وفرنسيين– الذي أسّس كرسي الأدب المقارن في جامعة الجزائر سنة 1963، وعزّزه بجمعية الأدب المقارن الجزائرية ودفاتر الأدب المقارن الجزائرية سنة 1964م، فهاجر إلى فرنسا وأوروبا من هاجر قصد متابعة الدراسة ثم الاستقرار هناك، وفضّل المسؤوليات السياسية والمناصب الإدارية من فضّلَ[4]، التحق "أبو العيد دودو" بجامعة الجزائر، وقام بترسيخ الأدب المقارن في الجامعة الجزائرية باللغة العربية بفضل نشاطاته التالية:

1- قام بتدريس الأدب المقارن ونظرية الأدب والآداب الأجنبية باللغة العربية منذ 1969 إلى آخر أيامه، حيث: «شقّ دودو طريقه بكفاءة في الجامعة وفرض نفسه

على المحيط الأكاديمي والثقافي بقلمه العربي الراقي، رغم أنه كان يعيش في قلب أوروبا (...) شارك في لجنة إصلاح التعليم، وفي إدارة شؤون الجامعة»[5].

2- وبناءً على هذه الشهادة للأستاذ سعد الله –أحد رموز جامعة الجزائر– يتضح أنّ "دودو" كان وراء ترسيخ الأدب المقارن ونظرية الأدب والآداب الأجنبية باللغة العربية ضمن مقرر ليسانس الأدب العربي بفضل إسهامه وجهده في لجنة إصلاح التعليم العالي سنة 1971م، مضيفاً بذلك لبِنَةً ثانية في صرح الأدب المقارن في الجزائر.

3- قام "دودو" بالإشراف على عدد من رسائل الماجستير ثم دكتوراه الدولة في الأدب المقارن، وعلى الرغم من قلّتها عدداً، إلا أنها كانت في صميم الأدب المقارن من حيث موضوعاتها. وبذلك واصل أصحابها جهد أستاذهم في ترسيخ الأدب المقارن في العديد من الجامعات الجزائرية مثل جامعة عنابة وجامعة الجزائر وجامعة وهران وكوّنوا بدورهم العديد من أساتذة الأدب المقارن انتشروا في مختلف الجامعات الجزائرية مرسخين الأدب المقارن فيها [6].

4- قام "دودو" بترجمة العديد من النصوص والمؤلفات من الألمانية أساساً إلى اللغة العربية. ويتضح من تتبع مترجماته أنها تدور في مجملها في فلك الآداب الأجنبية ونظرية الأدب والأدب المقارن.

1/4: ترجم "دودو" مجموعة من النصوص الأدبية الإبداعية شعراً ومسرحاً ورواية من مختلف الآداب الأجنبية القديمة والحديثة؛ ففي الشعر ترجم قصائد لستة عشر شاعر من مختلف أنحاء العالم ضمن كتابه «الشاعر وقصيدته» و «زنابق أشعار عالمية» و«مختارات شعرية ونثرية» لغوته و «لحنيات إلى أورفيوس» للشاعر راينر ماريا ريلكة R.M Rilke؛ وفي المسرحية ترجم «حديقة الحب» لـلوركا Lorca ، و«مسرحيات جورج بوخنر G. Büchner»...إلخ. أما في الرواية فقد ترجم الرائعة

الجزائرية الرومانية التي كتبها "لوسيوس أبوليوس L.Apulius" بعنوان «الحمار الذهبي»، وفضلاً عن روعة الترجمة ودقتها، فقد مهد لها الدكتور "دودو" بدراسة مستفيضة ومعمقة عن شخصية الحمار في الآداب القديمة وحمولاتها الدلالية والرمزية أولاً، ثم عن حمار "أبوليوس" وترجماتها المختلفة إلى اللغات الأوروبية في العصور الوسطى والحديثة، وبالتالي أوضح بدراسته المقارنية المعمقة تأثيرات هذه الرواية في الآداب الأوروبية من حيث موضوعها. ثم من حيث تقنياتها السردية، وأبعادها النفسية.

ويتّضح من مجمل النصوص التي ترجمها "دودو" من الألمانية أو عن طريقها إلى اللغة العربية أنه سعى طيلة نشاطه الترجمي –في المجال الإبداعي– إلى تعريف القارئ والطالب والباحث بنماذج شعرية ومسرحية وقصصية وروائية من مختلف المجالات اللسانية أولاً (المجال الجيرماني، والسلافي، واللاتيني، واليوناني، والأنجلوسكسوني، والهيسباني، والصيني،...الخ)؛ ومن مختلف الأزمنة والعصور (القديمة، والوسطى، والحديثة، والمعاصرة) وقد فعل كل ذلك –حسب اعتقادي– تماشياً مع متطلبات تكوين طلبة اللغة العربية وآدابها في مادة "الآداب الأجنبية" التي كان أحد مدرجيها في المقرر التعليمي الوزاري إذا لم يكن مدرجها الفعلي.

2/4: وإلى جانب ترجماته لنصوص إبداعية عديدة ومتنوعة، فقد ترجم مصنفات معرفية في الدرس الأدبي مثل «العمل الفني اللغوي» لفولفغانغ كايزر W. Kayser في جزئين، و«أصل العمل الفني» لمارتين هيديغر M. Heidegger، و«العمل الفني الأدبي» لـ "رومان إنغاردن R. Ingarden". وهي عناوين تصب محتوياتها في التنظير للعمل الفني اللغوي الأدبي بصفة عامة، وبالتالي فهي مراجع من أعمق كتب التنظير الأدبي نقلها الدكتور "دودو" إلى القارئ العربي ليسدّ فراغاً كبيراً في مجال نظرية الأدب التي كان يدرسها بشغف في جامعة الجزائر، ورسّخها في الجامعة الجزائرية.

3/4: وزيادة عما سبق ذكره اعتنى الدكتور "دودو" عناية خاصة بترجمة نصوص في أدب الرحلة ونصوص تاريخية صرفة كتبها جيرمانيون عن الجزائر ومدنها وطبيعتها ومجتمعها مثل «قسنطينة أيام أحمد باي» لـ "شلوصرSchlosser"، و«الطب الشعبي في الجزائر إبّان الاحتلال» لـ "شونبيرغ" و«مذكرات بفايفر» و«الأمير عبد القادر» لـ "كارل يوهان بيرنت"، و«الأمير عبد القادر والعلاقات العربية الفرنسية» لـ "ديترن"، و«مدخنو الحشيش» لـ "مالتسان"...الخ. وهذه المترجمات التاريخية جمعاء ترفد موضوع الصورة في الأدب المقارن.

5- وزيادة عن التعليم والإشراف على الرسائل والترجمة كَتَبَ الدكتور دودو العديد من الدراسات الأدبية المقارنة جمع البعض منها في كتابه «دراسات أدبية مقارنة»[7] ثمانية منها تتعلق بموضوع الصورة (صورة الآخر)، والثمانية الأخرى دراسات في العلاقات التاريخية المتبادلة بين العرب وأدبهم من جهة وبين الآداب الأوروبية من جهة أخرى. أما الدراسة الأخيرة فموضوعها علاقة التأثير والتأثّر بين "ليسنغ Lessing" الجيرماني و"فولتير Voltaire" الفرنسي؛ وبقي البعض الآخر مقدمات لترجمات مثل مقدمته لترجمة رواية "الحمار الذهبي" التي جاءت من أعمق الدراسات في أصول الرواية وفي تأثيراتها عبر الزمن في مختلف الآداب، ومقدمته لمسرحيتي "شيكسبير Shakespeare" «هاملت»، و«عطيل» المنشورتين في سلسلة "الأنيس" في الجزائر وكذا مسرحيتي «مكبث» و«العاصفة» في السلسلة نفسها، ومقدمته لكتاب «العمل الفني الأدبي» وكذا كتاب «العمل الفني اللغوي»..إلخ؛ وجاءت مقدماته دراسات مقارنة في أصول النصوص المترجمة وفي أبعادها الفنية أو المعرفية، وبذلك جاءت دراسات مقارنة بأدق معنى الكلمة.

وبعد هذا العرض لنشاط الدكتور "دودو" المعرفي ترجمة وتأليفاً نستخلص أمرين اثنين:

أولهما: أنه كان أول أستاذ جامعي جزائري باللغة العربية، درّس الأدب المقارن طيلة حياته المهنية الجامعية، وكوّن فيه أساتذة نشروا بدورهم الأدب المقارن في العديد من الجامعات الجزائرية تدريساً وتكويناً وبحثاً، وكتب دراسات أدبية مقارنة إما في "الصورة" وإما في العلاقات الأدبية التاريخية بين الأدب العربي وغيره من الآداب، وترجم مصنفات إبداعية وفكرية تصب كلها في مجرى الأدب المقارن أو الآداب الأجنبية التي تصب بدورها –بطريقة غير مباشرة– في مجرى الأدب المقارن، وبذلك أصبح لزاماً علينا أن نقول دون مراء بأن الدكتور "أبو العيد دودو" هو رائد الأدب المقارن في الجزائر..

وثانيهما: أنّ الدكتور "دودو" كان متعدد الاهتمامات والنشاطات الإبداعية والمعرفية ترجمة وتأليفاً غير أن المتمعن في ترجماته وكتاباته المعرفية يلاحظ عنايته الكبيرة بصورة الجزائر ومدنها وطبيعتها ومجتمعها عند الرحالة والمؤرخين الجيرمان؛ وإلى جانب ذلك يلاحظ تركيزه القوي في تتبع العلاقات التاريخية المتبادلة بين الأدب العربي وغيره من الآداب الأوروبية عموماً والجيرمانية على وجه الخصوص؛ وبذلك نستنتج أن دراسات الدكتور "دودو" المقارنة وترجماته المعرفية كانت ذات طابع تاريخي تربط الوقائع بالزمان وبالمكان وتتبعها تعاقبياً وتزامنيًّا لإثبات الروابط والصلات بُغية الكشف عن المصادر أولاً والتأثيرات ثانياً الأمر الذي يدلّ على أن توجه الدكتور "دودو" في الأدب المقارن كان توجّهاً تاريخياً لا يتخطى صيغة "س"، "و"، "ص" [8] فمن أين جاءه هذا التوجّه؟ هل يرجع ذلك إلى تكوينه الجامعي في العراق؟ أم إلى تكوينه العالي في النمسا؟ أم إلى تأثره بالترجمات التي أنجزها؟ أم اختار ذلك المنظور التاريخي لأنه

الأنسب إلى طبيعة الأدب العربي وتراثه عندما بدأ الدكتور "دودو" نشاطه المعرفي في الأدب؟

التحق "أبو العيد دودو" سنة 1951 –في إطار بعثة دراسية لجمعية العلماء المسلمين– ببغداد، وانخرط في دار المعلمين العالية حيث: «درس أربع سنوات في قسم اللغة العربية، وكان من أساتذته فيها المرحومون العالم اللغوي والمحقّق الشهير الدكتور مصطفى جواد، وشاعر الثورة العراقية في مطلع العشرينيات الوطني الغيور الدكتور مُحَمَّد مهدي البصير (...) كذلك الناقد المعروف الدكتور "علي جواد الطاهر"، والدكتور "عبد الرزاق محي الدين"، والدكتور "صفاء خلوصي"، وغيرهم من الأساتذة الكبار، الذين يدين لهم بالكثير من عناصر تكوينه»[9].

لقد تتلمذ طيلة أربع سنوات في بغداد، على أعلام عراقيين كبار، كان لهم الأثر الكبير في تكوينه. وعندما سألته، في لقاء من لقاءاتنا، عما استفاده في العراق أجابني بما معناه: أنه تعلم هناك حب الأدب العربي وتذوقه، والتدقيق اللغوي والاستمتاع بجمالية اللغة العربية، والانضباط المنهجي والتحقيق. ولم أُعِرْ وقتها اهتماماً كبيراً إلى الانضباط المنهجي والتحقيق، واعتبرت ذلك تتمّة حديث. لكن التفكير في توجه الدكتور "دودو" المعرفي قادني إلى دور أساتذته في دار المعلمين العالية واكتشفت –اعتماداً على شهاداته الشفوية والمكتوبة– أن جزءاً من تكوينه المنهجي تمّ هناك على أيدي أساتذته الذين اكتفى بذكر البعض منهم. وبالتمعّن في أسماء أساتذته العراقيين وطبيعة تكوين كل واحد منهم وتوجهه المعرفي والمنهجي يتضح لنا ما يلي:

1– تتلمذ "دودو" على أستاذه الدكتور "مصطفى جواد"، ووصفه "بالعالم اللغوي والمحقق الشهير، لأنّ "مصطفى جواد" حقّق العشرات من الكتب التراثية لغوية وأدبية وتاريخية، وقد تعلم بدوره الدراسات التاريخية [10]. ولمّا رجع إلى العراق، أرسى دعائم

الدرس التاريخي –كما تعلمه في السوربون– تدريساً في دار المعلمين العالية وكتابةً في أبحاثه وتحقيقاته الأدبية واللغوية والتاريخية حتى عدّ شيخ الأجيال ومعلّمها في العراق [11]. وكان من حظ "دودو" أن تتلمذ عليه، وتعلّم منه شيئاً من التدقيق اللغوي والتحقيق المنهجي التاريخي.

2– وتتلمذ أيضاً على شاعر الثورة العراقية "مُحَمَّد مهدي البصير" الذي كثيراً ما كان يسحر طلبته بأبيات من شعره، على حدّ قول "دودو" نفسه[12]، وزيادة عن ذلك فقد كان –أي البصير– أنموذجاً في تذوق الشعر وإلقائه، وفي التدقيق المنهجي الذي تعلمه في مرحلة دراساته العليا في فرنسا التي أحرز فيها –في جامعة مونبوليي Montpellier– على شهادة الدكتوراه. ولما رجع إلى دار المعلمين العالية أصبح معلماً فكرياً وأدبياً من معالمها: «إنّ الطالب منّا يقترب من السّنة الثّانية، فيملأ البصير عالمه: يحبه ويخافه، يعدّ له العدّة ويحسب الحساب، وينظر مخلصاً فيما له من مؤهّلات، لأنه مقبل على أستاذ جادّ (...) إنه شرف كبير أن تكون تلميذاً للدكتور البصير»[13]. وهذا ما وقع بالفعل لدودو، عندما تتلمذ على الدكتور مهدي البصير، فقد تعلم منه تذوّق الشعر، والولع بسحر العربية، والتّدقيق المنهجي.

3– كما تتلمذ على الأستاذ النّاقد الدّكتور "علي جواد الطّاهر" الذي تتلمذ بدوره على العلاّمة مصطفى جواد السّالف الذّكر، وأكمل دراساته العليا في فرنسا، حيث قضّى فيها: «خمس سنوات ونصف في كلّية الآداب –السّوربون– من جامعة باريس 1948–1954، فكانت التّكوين الثّاني لشخصيّته الأدبية، لم يكن الاستشراق همّه – منذ البدء– ولكنّه لا ينكر فضل المسيو بلاشير في منهج البحث» [14]، ولا يخفى على أحد أنّ منهج الأستاذ المستشرق "بلاشير" هو المنهج التّاريخي الصّرف كما يتجلّى في كلّ كتاباته، وعلى رأسها كتابه الشّهير «تاريخ الأدب العربي» بجزئيه، وكتيّب ألّفه بالاشتراك مع المستشرق "صوفاجي" بعنوان «قواعد لتحقيق النّصوص

العربية وترجمتها»، نهل منهما علي جواد الطّاهر "المنهج" [15]، وشرع في تعليمه لطلبة دار المعلّمين العالية فور عودته من باريس سنة 1954، وكان "أبو العيد دودو" من بين الطّلبة الذين تتلمذوا عليه، وأُعجبوا به، تلقّى على يديه توجيهات ودروسا منهجية، جمعها صاحبها –أي علي جواد الطّاهر– في كتاب بعنوان «منهج البحث الأدبي» صار منذ طبعته الأولى عمدة الطّلبة والباحثين العرب؛ لخّص فيه مؤلّفه الخطوات المنهجية الإجرائية التي جاء بها المنهج التّاريخي كما يتجلّى في أوضح صوره وتطبيقاته من خلال كتابات الأستاذ "غوستاف لانسون" وأتباعه التي تشكّل أساس مراجع كتاب «منهج البحث الأدبي»؛ وبذلك يكون "أبو العيد دودو" قد تتلمذ بطريقة غير مباشرة على "لانسون" رأس المنهج التّاريخي في دراسة الأدب والتّأريخ له منذ مرحلة الدّراسة الجامعية في بغداد؛ وبذلك يكون الحسّ المنهجي التّاريخي قد تكوّن لديه في دار المعلّمين العالية على أيدي نخبة من أساتذته العراقيّين.

وبعد تخرّجه من دار المعلّمين العالية سنة 1956، انتقل في السّنة نفسها إلى النّمسا، والتحق بقسم الدّراسات الشّرقية في جامعة "فيينا"، فدرس الأدبين العربي والفارسي، والعلوم الإسلامية والفلسفة، وعلم النّفس واللّغات القديمة وعلى رأسها اللغة اللاّتينية، وأنجز رسالة عن الشّاعر المؤرّخ السّوري "ابن نظيف الحموي" نال بها درجة الدّكتوراه سنة 1961، بإشراف المستشرق "هانس لودفيغ غوتشالك Hans Ludovic Gottschalk". ودرّس اللّغة العربية –بعد تخرّجه– في النّمسا سنوات عدّة، وتعامل علميا مع أعلام الاستشراق الجيرماني في النّمسا وألمانيا الغربية مثل "فيلهالم هونرباخ Wilhalm Hoenrbach"[16].

تفاعل "دودو" مع الفكر الجيرماني الرّصين في الآداب واللّغات والتّاريخ والفلسفة مرتكزا في ذلك على أعمال المدرسة الاستشراقية الجيرمانية المعروفة بالدّقة العلمية والرّصانة والموضوعية والحياد، وتلك هي منطلقات المنهج التّاريخي في البحث،

وزاده تعمّقا في ذلك أستاذه المشرف "غوتشالك" الولوع بالمخطوطات العربية الإسلامية والذي ترك للمكتبة العلمية العشرات من الدّراسات في التّاريخ العربي الإسلامي وأعلامه [17]، وعلاقاته العلمية العديدة مع العديد من المستشرقين الجيرمان الذين كان معجبا بهم مثل المستشرق "هونرباخ" صاحب الدّراسات العديدة في تاريخ الإسلام وتراثه[18]. وبذلك، نهل "دودو" من منبع المنهج التّاريخي.

وخلاصة القول، فإنّ "دودو" تغذّى بفنّ الأدب وعلم التّاريخ في دار المعلّمين العالية في بغداد، وازداد توجّهه الأدبي والتّاريخي في النّمسا على أيدي المستشرقين الجيرمان الولوعين بالتّاريخ العربي الإسلامي وتراثه اللّغوي والأدبي، الأمر الذي جعله يختار المؤرّخ الشّاعر "ابن نظيف الحموي" موضوعا لرسالة الدّكتوراه، فدرس سيرة الشّاعر المؤرّخ، وحقّق أشعاره، وترجم كلّ ذلك إلى اللّغة الألمانية مطبّقا في عمله منطلقات المنهج التّاريخي وخطواته الإجرائية؛ وهكذا، بدأ التّوجّه التّاريخي في حياة دودو المعرفية بصفة عامّة،وفي دراساته الأدبية المقارنة، وفي إشرافه على الرّسائل الجامعية على وجه الخصوص، فكيف كان ذلك؟

كان "دودو" متعدّد الاهتمامات –كما رأينا– الأمر الذي جعل نتاجه الأدبي أو المعرفي لا يصبّ في مجال واحد، وبالتّالي توزّعت جهوده؛ ومع ذلك، فقد ترك عددا معتبرا من الدّراسات الأدبية يمكن تقسيمه إلى قسمين اثنين:

أوّلهما: دراسات في الصّورة مثل: «صورة مدينة الجزائر»، و«صورة البليدة»، و«صورة شلاّلة مازونة»، و«صورة الصّحراء»، و«المؤرّخون الألمان والجزائر»...إلخ [19]، وكتاب «الجزائر في مؤلّفات الرّحالين الألمان»؛ وهي دراسات بحث فيها صاحبها انعكاس صورة الجزائر كليا أو جزئيا في كتابات الأدباء والرّحالين الجيرمان. وبالتّالي فقد درس

كيف رأى الرّحالون والكتّاب الجيرمان الجزائر أو جزءا منها وكيف تأثّروا بها، وكيف انعكس ذلك في كتاباتهم.

والمعروف أنّ هذا الضّرب من الدّرس يندرج في صميم الأدب المقارن منذ ثلاثينيات القرن العشرين باعتباره دراسة في المكوّنات الخارجية للنّص الأدبي، والمعروف في أدبيات الأدب المقارن أنّ منهجية دراسة صور الشّعوب في آداب بعضها تقوم على المنهج التّاريخي أساسا[20].

وهكذا، كانت اهتمامات الدّكتور "دودو" التّاريخية منطلقه الأساس لدراسة صورة الجزائر ومدنها وتقاليدها وشخصيّاتها عند الآخر، أي عند الرّحالة والأدباء الجيرمان، فأنجز العديد من الدّراسات في صور الجزائر، وهو الأمر الذي لم ينجزه غيره، لا كمّا ولا كيفا، ولا من حيث مجال الصّور المدروسة -أي العالم الجيرماني-. وبذلك، كان متفرّدا في دراسة صور الجزائر دراسة تاريخية عند الآخرين.

وثانيهما: دراسات أدبية، بحث فيها العلائق التّاريخية المتبادلة بين الأدب العربي وغيره من الآداب مثل «بوشكين والقرآن الكريم» و«الأعرابي والدّجاجة والفلاّح والوزّة»، و«هاينه والمنصور»، و«غريلبارتسر وحنّبعل»، و«فيلهلم هاوف وألف ليلة وليلة»، و«جورج هايم ويوغرطة»، و«مؤثّرات عربية في شعر هاينه»، و«كاريير والأدب العربي»...إلخ؛ فضلا عن مقدّماته المستفيضة والمعمّقة لمترجمات أدبية مثل مقدّمته لرواية «الحمار الذّهبي»، ومقدّمته لمسرحيات شكسبير التي صدرت في الجزائر ضمن سلسلة «الأنيس». ويتّضح لقارئ هذه الدّراسات أنّ "دودو" ركّز فيها على إثبات التّأثير والتّأثّر عبر صلة أو صلات تاريخية مباشرة أو غير مباشرة معتمدا في ذلك على الأدلّة والبراهين التّاريخية؛ فهو يثبت تأثّر "بوشكين" بالقرآن الكريم اعتمادا على نصوصه الشّعرية مثل قوله:

«كنت أهيم على وجهي في قفر مظلم،
وكانت روحي تحترق ظمأ إلى الحقيقة،
حين ظهر لي في مفترق الطّرق ملاك
بستّة أجنحة.. شقّ بالسّيف
صدري، وأخرج قلبي النّابض،
وغرس في صدري المشقوق فحمة
عارمة اللّهيب!» [21]

ولا تحتاج أبيات "بوشكين" هذه إلى أيّ شرح أو تعليق بالنّسبة إلى أيّ عربيّ أو مسلم. كما أثبت تأثّر الكاتب الألماني الشّهير "هاوف" بألف ليلة وليلة، حيث قال في آخر بحثه: «وكيفما كان الأمر، فإنّ هذه الدّراسة لم يُقصد بها تتبّع جميع التّفاصيل والجزئيات في حكايات "هاوف" المختلفة، بقدر ما يُقصد بها إثبات تأثّر الكاتب الألماني بألف ليلة وليلة ولا سيّما في مرحلته الأدبية الأولى. إلاّ أنّه ينبغي لنا أن نعترف أنّ "هاوف" كان قارئا متميّزا، فقد حاول أن يتمثّل الحكايات التي قرأها ويطوّرها ويخضعها بالتّالي لوجهة نظره الخاصّة التي لم تكن تخلو من مسحة واقعية»[22]؛ وأثبت تأثّر الشّاعر الألماني الشّهير "هاينريش هاينه" بمؤثّرات عربية تتجلّى –على سبيل المثال– في مسرحيته الشّعرية بعنوان «المنصور» التي استعرض فيها مجد العرب في الأندلس ومأساتهم، وفي مطوّلته الشّعرية الشّهيرة بعنوان «عذرة» التي استلهمها من الشّعر العذري العربي [23].

كما أثبت تأثّر الشّاعر الألماني "موريتس كاريير" بالشّعر العربي القديم في كتابه الضّخم والشّهير بعنوان «الشّعر، جوهره وأشكاله على أسس تاريخ الأدب المقارن» لأنّه أورد في كتابه العديد من النّماذج الشّعرية العربية –مثل أبيات لتأبّط شرّا– للاستشهاد بها على القضايا الشّعرية التي درسها أو نظّر لها في كتابه، وبذلك

أثبت دور تأثّر "كاريير" بالشّعر العربي معتمدا على الدّليلين الفنّي والبيبليوغرافي وهما عماد المنظور التّاريخي ليقول في الأخير: «وهكذا، نرى الفيلسوف الألماني لم يغمط الأدب العربي حقّه، وإنّما حاول لأن ينوّه به وبشعرائه كلّما استوجبت طبيعته ذلك، ويُعلي من شأنه بين الآداب العالمية، شرقية كانت أو غربية، قديمة كانت أو حديثة، فكتابه يشهد بهذا كلّه»[24].

ومن دراساته الأدبية المقارنة التي يتجلّى فيها المنهج التّاريخي في أوضح منطلقاته، وأدقّ خطواته الإجرائية مقدّمته لرواية «الحمار الذّهبي»، حيث درس حياة "أبوليوس" دراسة دقيقة، ثمّ درس الرّواية من حيث أصولها ومصادرها المختلفة، ثمّ علاقتها بشخصية مؤلّفها، وأخيرا تأثيراتها في العصور الوسطى والحديثة، معتمدا في ذلك على مصادر ومراجع باللّغات اللاّتينية والألمانية والعربية والفرنسية، فجاءت الدّراسة تاريخية، بأتمّ معنى الكلمة، نادرة في صنفها، وقلّما نجد دراسات شبيهة بها باللّغة العربية.

وبناء على ما سبق ذكره، يتّضح جليّا أنّ الدّكتور "دودو" طبّق في دراساته الأدبية المنهج التّاريخي كما وضعه الألمان في القرن التّاسع عشر وطوّره الفرنسيون في بدايات القرن العشرين وطبّقوه في دراسة الأدب والتّأريخ له [25].

أمّا في مجال الإشراف على الرّسائل الجامعية، فقد أشرف على عدد من رسائل الدّكتوراه، مثل:

- «تأثير الموشّحات في التّروبادور» لعبد الإله ميسوم
- «الفكر الفرويدي وأثره في النّقد العربي» لعبد الله بن حلي
- «اللاّنسونية وأبرز أعلامها في النّقد العربي الحديث» لعبد المجيد حنون
- «مُحَمَّد تيمور وغي دي موباسان، دراسة مقارنة» لعبد القادر بوزيدة
- «صورة الصّهيونية في الرّواية الفلسطينية» لحسين أبو النّجا.

ويتّضح من التّمعّن في عناوينها أنّ أربعة منها تعالج قضية التّأثير والتّأثّر المتبادلة عبر الزّمان والمكان وعبر حدود لغوية، وبالتّالي فهي تصبّ كلّها في توجّه المدرسة الفرنسية التّاريخي في الأدب المقارن. أمّا الخامسة، فتدرس الصّورة في الرّواية العربية، وبالتّالي فهي أيضا تندرج ضمن المنظور التّاريخي للمدرسة الفرنسية لأنّها تدرس مؤثّرا في الأدب الفلسطيني أجنبيا عنه.

وهكذا، ندرك أنّ الدّكتور "دودو" احترم توجّهه المعرفي التّاريخي في الإشراف على الرّسائل الجامعية، بما في ذلك رسائل الماجستير التي لم أذكرها. وهنا أسجّل للتّاريخ أنّ المرحوم "دودو"، كان يلحّ في قراءاته لفصول رسالتي –التي أشرف عليها– على:

الحياد والموضوعية والنّزاهة العلمية في إصدار الأحكام والنّتائج، وضرورة الاعتماد على الأدلّة العلمية والعقلية والنّقلية في معالجة القضايا المدروسة، والرّجوع إلى المصادر والمراجع الأصلية، وعدم الرّكون إلى المسلّمات، وعدم إصدار الأحكام المطلقة أو النّهائية. كما كان يلحّ كثيرا على دقّة اللّغة وسلامتها وجمالها لأنّ الأدب يبقى فنّا حتّى لو كان بحثا أكاديميا.

وبناء على ما سبق ذكره، فإنّ الدّكتور "دودو" هو رائد الأدب المقارن في الجزائر دون مراء؛ وأنّه نحا في دراساته الأدبية منحى تاريخيا تعرّف عليه أثناء دراسته في دار المعلّمين العالية في بغداد، وتمكّن منه في منبته الأصلي، وعند أهله الأوّلين، أعلام المدرسة الجيرمانية في الاستشراق، وطبّقه في دراساته التّاريخية والأدبية المقارنة، ووجّه طلبته في مختلف مستوياتهم الدّراسية إلى تطبيقه.

الهوامش:

*أبو العيد دودو من مواليد قرية تامنجر، بلدية العنصر، ولاية جيجل يوم 1934/01/31م ، توفّي يوم 2004/01/16، في الجزائر العاصمة.

(1) حنون (عبد المجيد):أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر، مجلة اللّغة العربية، العدد 11، المجلس الأعلى للّغة العربية، 2005، ص151-180.

(2) تأسّست جامعة الجزائر سنة 1909، في ظلّ الاستعمار الفرنسي، وبذلك، تعدّ تاريخيا من أقدم الجامعات في العالم العربي، إلاّ أنّها كانت في واقع الأمر امتدادا للجامعة الفرنسية، أسّسها المستعمرون لخدمة أبنائهم وترسيخ استيطانهم في الجزائر، وبذلك كانت الدّراسات اللّغوية والأدبية العربية فيها استشراقية الرّوح والطّابع، ولذلك تأخّر ظهور الأدب المقارن فيها إلى مرحلة الاستقلال.

(3) نويوات (مختار): الدّكتور أبو العيد دودو نبذة وجيزة عن حياته وآثاره، مجلة اللّغة العربية، العدد 11، ص79-80.

(4) حنون (عبد المجيد): الأدب المقارن في الجامعة الجزائرية، بحث قُدّم في ملتقى "المقارنون العرب اليوم" في جامعة مُحَمَّد الخامس أكدال، الرّباط، يومي 29 و30 أفريل 2013.

(5) سعد الله (أبو القاسم): الدّكتور أبو العيد دودو (1934-2004)، مجلّة العّة العربية، العدد 11، ص 103-104.

(6) حنون (عبد المجيد): مرجع سبق ذكره. ص165.

(7) دودو (أبو العيد): دراسات أدبية مقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

(8) برونيل (ب) وبيشوا (ك) وروسو (أ): ما الأدب المقارن؟ ترجمة: عبد المجيد حنون، ونسيمة عيلان، وعمار رجّال، دار بهاء الدّين للنّشر والتّوزيع، قسنطينة/ الجزائر، 2010، ص100-105.

(9) دودو (أبو العيد): حياة وأعمال، بقلم صاحب السّيرة ذاته، مجلّة اللّغة العربية، العدد 11، ص260.

(10) نجيب العقيقي: من الأدب المقارن، الجزء الثّاني، الأنجلو مصرية، القاهرة، 1976، ص151.

(11) الطّاهر (علي جواد): أساتذتي ومقالات أخرى، دار الشّؤون الثّقافية العامة، بغداد، 1987، ص15-20.

(12) دودو (أبو العيد): حياة وأعمال، مجلّة اللّغة العربية، العدد 11، ص260.

(13) الطّاهر (علي جواد): مرجع سبق ذكره، ص28-29.

(14) الطّاهر(علي جواد): المرجع نفسه، ص385-386.

(15) الطّاهر (علي جواد): منهج البحث الأدبي، مطبعة أسعد، ط3، بغداد، 1976، ص4-5.

(16) دودو (أبو العيد): حياة وأعمال، مجلّة اللّغة العربية، العدد 11، ص260-261.

(17) نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف،ج2، ط4، القاهرة، 1980، ص291-292.

(18) نجيب العقيقي: المرجع نفسه، ص453-454.

(19) دودو (أبو العيد): دراسات أدبية مقارنة.

(20) للتّوسّع في هذه القضية، يُراجع القسم الثّاني من الفصل الأوّل بعنوان "الصّورة"، ضمن كتاب عبد المجيد حنون، بعنوان "صورة الفرنسي والفرنسية في الرّواية المغاربية"، دار علاء الدّين للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2013.

(21) دودو (أبو العيد): المرجع السّابق، ص84.

(22) دودو (أبو العيد): المرجع نفسه، ص137-138.

(23) دودو (أبو العيد): المرجع نفسه، ص153-165.

(24) دودو (أبو العيد): المرجع نفسه، ص176.

(25) للتّوسّع في المنهج التّاريخي ونشأته وتطوّره وطبيعته، يُراجع الفصل الثّاني من كتاب عبد المجيد حنون، بعنوان: "المدرسة التّاريخية في النّقد العربي الحديث"، دار بهاء الدّين للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2010، ص95-130.